صناعة المعنى بين المؤلف والقاريء

Making Meaning between the author and the reader..

نعيمة بوزيدي
naimabouzidi02@yahoo.fr

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر العاصمة الجزائر

تاريخ الارسال:2023/01/05	تاريخ القبول 2023/06/03	تاريخ النشر 2023/12/31

الملخص:

لقد كان المعنى مدار اهتمام الدارسين، فكلّهم يقرّون بقيمة المعنى غير أنّ نظرهم اليه كان مختلفا، فالنقد القديم يبدو أكثر اهتماما بالمعنى النصي ويعتبره دائم الحضور في الكتابة وأساسها، أما المقاربات الحديثة وانطلاقا من تركيزها على النص دون منشئه فقد سعت إلى تبيين أنّ النّص يصنع معناه بنفسه، ويختفي المعنى القصدي ليصبح المعنى الذي انتجه النص هو الأساس، فدور القارئ هنا لا يقل شأنا عن دور المؤلف؛ لأنه يقوم بتحويل النص من التجربة الفنية التي يتمثلها عبر آلية الابداع إلى تجربة عملية بفعل حركية التلقي، فالنص دون قارئ محكوم عليه بالنسيان، وتحاول الدراسة أن تبين كيف تتم صناعة المعنى؟ وكيف تسهم أطراف الخطاب في صناعته من خلال الإجابة عن مجموعة من الأسئلة منها: هل المؤلف وحده صانع المعنى ومحدّد الهدف من عملية التخاطب ؟ وهل صحيح أنّ دور القارئ يفوق دور المؤلف في صناعة المعنى وانتاجه في شكله النسبي والمحتمل والمؤقت؟ أم أنّ صناعة المعنى عمل مشترك بين المؤلف والقارئ؟ وماهي شروط النص الذي يعاد انتاجه من جديد؟ هذه أسئلة وأخرى تحاول الدراسة أن تجيب عنها.

الكلمات المفتاحية: صناعة، المعنى، المؤلف، القارىء، النقد القديم، المقاربات الحديثة

Abstract

The meaning was the focus of the scholars' attention, however, their view toward it was different. The ancient criticism seems more interested in the textual meaning and considers it to be always present. Modern approaches have sought to show that the text makes its meaning by itself. meaning And how do the methods to the discourse contribute to its making by answering a set of questions, including: Is the author alone the maker of meaning and the determinant of the goal of the communication process? Is it true that the role of the reader outweighs the role of the author in making meaning, or is making meaning a joint work between them? What are the conditions for the text to be reproduced again? .

KeysWords
Making ,Meaning, Author ,Reader, OldCriticism, ModernApproaches.

مقدمة:

لقد كرّست الدّراسات النّقدية القديمة غلبة المؤلف في صناعة المعنى على القارئ، فهو الذي يصدر أمره فينفّذ باعتبار أنّ تصوّره هو الأولى والأنجح في بناء مقصدية النص، بل رأت أنّ مقصدية النّص هي بعينها مقصدية المؤلف، وعليه لا بديل للقارئ إلاّ الخضوع والامتثال الكلي لما صدر عن المؤلف لكونه الحامل للمعنى الحقيقي الفعلي للنص؛ لأنّه هو الأدرى بما صنع، وهو ما يجعل استحالة تجاوز مقصدية المؤلف في كلّ الأحوال، وعليه تستوجب مهمة القارئ في محاولة الوصول إلى ما أراد أن يقوله المؤلف لا غير، إذ هناك وجهة نظر معيّنة محدّدة على القارئ أن يكتشفها، فما عليه إلاّ تأكيد أفكار المؤلف وطروحاته، فالتلقي في هذا الموضع لا يتجاوز حدود السلبية، وهو ما يترجم غياب رد فعل القارئ، إذاً فالغلبة للمؤلف على حساب القارئ.

لكنّ الدراسات الحديثة أعادت الاعتبار إلى القارئ، فالبنائيون يؤكدون أنّ المعنى ليس بالشيء المهم في بحث الابداع الأدبي؛ لأنه ظاهرة غير ثابتة، وأنّ كلّ معنى يكمن خلفه لا معنى، أو بتعبير آخر فإنّ أوجه المعنى غير متناهية تتجدّد من قارئ إلى آخر، ومن عصر إلى خر[1] وذلك يؤدي بطبيعة الحال إلى نتيجة حتمية تتلخص في أنّ معنى النص ظاهرة يشارك القارئ في ايجادها فهي ليست من صنع المؤلف وحده.

1. النص مؤهلاته ومستوياته:

يرى بعض الدارسين أنّه "لا يوجد نص قبل عملية القراءة، فالنص يولد حينما يقرأه الآخر؛ أي القارئ، النص فراغ بعضه فوق بعض، والقارئ هو الذي يملأ هذا الفراغ ، إنّه هو الذي يقيّمه وينشئه وينتجه"[2] والأعمال الخالدة لا تفرض معنى واحدا على قراء مختلفين، إنّما توحي بمعان مختلفة لقارئ واحد، ذلك أنّ هدف مثل هذه القراءة ليس تحديد معنى النص بل تثمين التعدد الكامن في طياته.

إنّ منتج النص ينبغي أن يراعي مؤهلات عدة أبرزها مطابقة الكلام لمقتضى الحال" فيعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ،ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على اقدار تلك الحلات"[3] والمؤلف ليس حرا في كتابة نصه بل عليه أن يراعي مستوى المتلقي مقامات وأقدارا.

ويؤكد "ابن طباطبا " أنّ الفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائر المعروف المألوف، ويتشرّف اليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ، والباطل، والمحال، والمجهول، المنكر، وينفر منه، ويصدأ له، فإذا الكلام الوارد على الفهم، منظوما مصفى من كدر العي، مقوما من أود الخطأ واللحن، سالما من جور التأليف، موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له وآنس به، وإذا ورد عليه ضد هذه الصفة، وكان باطلا انسدت طرقه ونفاه، واستوحش عند حسه به، وصدئة له وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها".[4]

والأثر الحق هو الذي يفتح آفاق تعددية المعاني، ويحدث في القارئ شرخا من خلال ما يحتويه من مسوغات لغوية وفكرية " وإذا كان المعنى يرعبنا فسبب ذلك أنّ النص يشغلنا بصفة التعدد اللامنتهية فيه، يشغلنا بسبب رفضه البساطة، أو عقيدة السببية ...لا نريد إنشاء النص فكلّ شيء يسير على نحو مستمر ومرات عديدة، ولكنّه لا يملك سلطانا لتحقيق الوحدة النهائية أو البنية العليا"[5] فالنص البسيط لا يثير تعددا في الفهم وإنما النص الكثيف هو الذي يثير ذلك التعدد.

والنص عند "شلير ماخر" عبارة عن وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ، ونتيجة لذلك فهو يشير في جانبه اللغوي إلى اللغة بكاملها، ويشير في جانبه النفسي إلى الفكر الذاتي لمبدعه، والعلاقة بين الجانبين علاقة جدلية، وكلّما تقدّم النص في الزمن صار غامضا بالنسبة لنا، وصرنا من ثم أقرب إلى سوء الفهم لا إلى الفهم" [6]

ويرى بعض النقاد في غموض النص دعوة صريحة إلى تكثيف نشاط القراءة، وأنّ قراءة القصيدة تختلف عن قراء القصة، فمواجهة القصيدة الشعرية تقتضي جهدا كبيرا من طرف القارئ حتى يجد منفذا لخبايا القصيدة، عكس القصة التي تقوم على نظام من المعاملات

المترابطة بما يخدم منطق السرد، والهادفة إلى توصيل الوقائع بقدر من الاتساق والوضوح نحو القارئ[7] فكل نص يقرأ بطريقة خاصة.

أما مستويات النص من حيث طريقته في انتاج الدلالة فمتعددة، فهناك قسم تتكشف دلالته للقارئ العادي، ولا يحتاج من القارئ سوى أن يكون من أبناء اللغة، وهذا القسم الدال بالنسبة إلى القارئ العادي "لا يعذر أحد بجهالته"، وهناك قسم آخر يحتاج من القارئ أن يكون على معرفة بعلوم اللغة حتى يتمكن من اكتشاف دلالته، وهذا هو القسم الذي "تعرفه العرب في كلامها "ومعنى ذلك أنّ ثمة مستويات لدلالة النص تتكافأ مع مستويات القراء، وذلك يجعل النص نصا عاما، ومن الممكن أن نعيد صياغة هذا المفهوم بلغة معاصرة، فنقول أنّ النص دال بالنسبة إلى القارئ العادي، ولكنّ مستوى دلالته هنا تقف عند حدود السطح، ويتجاوز القارئ الممتاز هذا المستوى السطحي إلى مستوى دلالي أعمق إذا كان على علم بقوانين تمكّنه من تحليل معطيات النص تحليلا لغويا، ولكن ثمة مستوى ثالث يتجاوز التحليل اللغوي إلى اكتشاف الابعاد الدلالية الأعمق للنص، وهذا المستوى هو ما يمثله القسم الرابع الذي "يعلمه العلماء خاصة"[8]، ولا شك أنّ هذه التفرقة بين مستويات الدلالة التي ينكشف بها النص لأفق القارئ تفرقة تؤكد دور القارئ في كشف دلالة النص كما سنوضح لاحقا " فلا يوجد نص قبل عملية القراءة، فالنص يولد حينما يقرأه الآخر؛ أي القارئ "[9] فمستويات النص تعدد مستويات القراءة من المستوى البسيط إلى المستوى الأعلى.

وتحدّث الغذامي عن الاختلاف في النص الادبي كقيمة أولى من حيث اختلاف لغة النص عن لغة العادة، واختلاف الحاضر منها عن الغائب، ويكون هذا الاختلاف في النص كمساحة من الفراغ تمتد بين طرفي عناصر الحضور وعناصر الغياب، وعلى القارئ أن يقيم الجسور فيما بينها ليعمّر هذا الفراغ ، وذاك هو التفسير وهو فعالية القراءة الأدبية التي تهدف إلى تأسيس هذا المعنى المفقود الذي يدعم كلّ المعاني ويجعلها ممكنة، وعملية استحضار الغائب تفيد في تحويل القارئ إلى منتج للنص، فهي تثري النص باجتلاب دلالات لا تحصى اليه[10] فمعاني النص هي التي تستدرج القارئ نحوه

2. القراءة مفهومها ومستوياتها

إنّ القراءة هي في حقيقتها نشاط فكري لغوي مولّد للتباين، منتج للاختلاف، فهي تتباين بطبيعتها عما تريد قراءته، وشرطها بل علة وجودها وتحققها أن تكون كذلك، أي مختلفة عمّا تقرأ فيه، ولكن فاعلة في الوقت نفسه ومنتجة باختلافها ولاختلافها بالذات".[11]

فالقراءة نشاط ومسلك يتبعه القارئ من أجل أن تؤدي عملية الفهم مقصدها، بمعنى الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه هو انتاج المعنى، ويبقى أنّ دليل الفهم هو المعنى الذي قد يظفر به القارئ من قراءته الذي يتشكل بدوره(المعنى) كمحصلة تجمع بين مقصد المؤلف في النص، والخلفية المعرفية التي يستند إليها هذا القارئ، من حيث الموقع الذي ينبني عليه فهمه الخاص لهذا النص كما يراه هو، وليس من زاوية المبدع، وهو ما قد يشير إلى أنّ المعنى النصي في عمومه يتجاوز مقصدية المؤلف؛ إذ إنّه بمثابة اتفاق ضمني بين فحوى الرسالة الإبداعية التي أكسبت النص كينونته، ومعتقدات القارئ أو قناعاته المعرفية احتكاما إلى البنية الثقافية التي يمتلكها، هذا يجعل المعنى النصي لا يخرج عن المغزى الذي وضع من أجله، وفي الوقت نفسه يكرّس حضور القارئ، ويكشف مدى تبنيه أو رفضه لطروحات المؤلف.[12]

فالقراءة لا تعني مجرد استنطاق الكلمات وفهمها وهي منفردة، بل هي محاولة الوقوف عند المعنى النصي في كليته، إذاً هناك انتاج للمعنى من قبل القارئ الذي يقف من المعنى موقفا مستقلا عن المؤلف.

ويقوم نشاط القراءة بالأساس حسب "إسكاربيت" على الاسقاط؛ أي أنّ القارئ يسقط على النص تجربته الخاصة، فبمجرد تلقي النص يسعى القارئ إلى إعادة هيكلته من جديد بطريقة تسمح له باختبار أجوبة متعدّدة على عملية التنبيه، هذا ما يجسّد طبيعة القراءة الإسقاطية حيث تكون المبادرة للقارئ على حساب النص، ويصنف "اسكاربيت" جمهور القراء المفترضين حسب التصورات التالية:

_ المبدع هو أول قارئ لإنتاجه، وهذا لا يعني فصل مرحلة الكتابة عن القراءة.

_ جمهور الوسط الاجتماعي وهو الجمهور الذي نشأ في وسطه الكاتب.

_الجمهور العريض وهو التواجد خارج الرقعة الاجتماعية والزمانية والمكانية التي ينتسب اليها الكاتب، كما يميّز بين القارئ المستهلك الذي يخضع إلى عامل الذوق، والقارئ المطّلع الذي يعي الظروف المحيطة بالعمل الابداعي[13] فاسكاربيت بمقدار ما يوسع مجال القراءة (اجتماعية الادب) بمقدار ما يضيقة في القارئ المطلع " فالقراءة فعل ابداعي يكرّس حضور القارئ وفعاليته في صنع المعنى، و مواصفات القارئ الفاعل المفعل تتحدد بدءا من النص ذاته؛ أي من خلال القدرة على الاستفادة ممّا يوفره من معطيات قرائية"[14]

فعملية القراءة ليست سهلة وفعاليتها مقرونة بمساهمة القارئ؛ لأنّ النص نداء والقراءة تلبية لهذا النداء"[15]

وعلى القارئ أن تفوق قراءته حدود التلقي المباشر، ولا تكتفي بالعرض والتلخيص والتحليل، وإنّما تحاول الكشف عن وجهات نظر، يتضمّنها الخطاب في شكلها الصريح أو الضمني، بتجاوز كلّ خلل أو عائق يعرقل عملية الاتصال وهو يتعامل مع الخطاب الذي يتلقاه[16]، وإن كان فهم الانسان للنص قابلا

للتغيير على مرّ الزمن، فلا شك أنّ النص يحيل إلى معان جديدة تستجيب إلى حاضر القارئ من دون أن تتنصل عن جذور الماضي" فالمعنى يكون من أجل النص وعبره، وليس على حسابه أو بمعزل عنه، وهذا لاعتبار بسيط مفاده أنّ **النص هو المعني** بعملية التأويل دون سواه؛ لأنّ التفسير هو مجرد محاولة الوصول إلى المعنى في ظل إمكانات معرفية متواضعة لا تستجيب إلى شروط القراءة الواعية المنتجة، فالفهم يكون على هذا المستوى سطحيا، قد يقتصر على المنحى البراغماتي، فيكون التعامل على أساس المدلول اللغوي المعجمي، وقد يقوم التفسير على سند نقلي بتبني شروحات الآخرين وقد يكون التفسير هو المنهج الذي يوصل إلى عملية الفهم النصي حينما يتطابق مفهوم التفسير بمدلول العلة أو السبب، وعلى هذه الصورة يبقى التأويل دائما أوسع من التفسير، في التأويل يكون هناك مشروع للقراءة، والتزام بمنهجية وخبرة في الممارسة واستراتيجية و محاولة الالمام بمقاصد وغايات النص الظاهرة والباطنة، وحضور الطرح العلمي في صنع المعنى و إمكانية انتاج المعنى حسب النمط الاحتمالي الترجيحي لكن في ظل سند برهاني، فالتأويل إعمال للفكر بوعي عن قصد وغاية واجتهاد و اثراء وقدرة على كشف المتخفي من المقروء. [17]

ان القراءة تعني إيجاد المعاني، وإيجاد المعاني يعني تسميتها بيد أن هذه المعاني المسماة تجرف نحو أسماء أخرى، فأسماء يحفز بعضها بعضا، ويقترب بعضها من البعض الآخر ويتطلب تكتلها تسميتها من جديد، فأنا أسمي ثم ألغي الاسم ، ثم اسمي ثانية وهكذا يسير النص فهو عملية مستمرة من التسمية من التقريب لا تعرف الكلل ومشروع كناية[18].والكناية في البلاغة معنى قريب ومعنى بعيد.

3. صلة القارئ بالقراءة

إنّ المفهوم السائد قديما كان يكرّس مبدأ الفصل بين الكتابة والقراءة باعتبار أنّ الكتابة ترتبط بالمبدع، بينما القراءة تتصل بعملية التلقي، في حين أنّ العملية في العصر الحديث تغيرت، فأصبح الكاتب قارئا، والقارئ كاتبا فـ "ايزر" يرى أنّ النص بناء تخطيطي غير مكتمل، تتخلله فراغات تستدعي ملأها، وهذا ما يسمح للقارئ ان يشارك مشاركة فعالة في انتاج معنى النص[19].

وتتضح هذه الصلة بمجرد شروع القارئ في استقبال النص المعد للقراءة، وينحصر التركيز في هذه المرحلة على نقطتين رئيسيتين هما: القارئ وفعل القراءة، وتتمثل هاتان النقطتان في معاينة هذه الصلة ضمن بعدها السوسيولوجي والمعرفي كما أوردها بعض النقاد العرب المحدثين ما يخدم الغرض السيكولوجي حينما يصير القارئ الفعلي موضع استقطاب في سبيل الاطلاع على آرائه وسلوكاته وميوله وانشغالاته المرتبطة بظاهرة القراءة، وهذا ما سعى إلى تحقيقه كلّ من "أحمد رضاوني ومحمد بنيس" ضمن بحث ميداني خصا به شرائح محددة من القراء في انحاء المغرب، ومن أهم النتائج التي توصل اليها هذا البحث الميداني أنّ الزمن هو الذي يتحكم في القراءة وليس الفرد الممارس، وهو ما يوحي بأنّ

القراءة هي فائض العمل لا العمل ذاته، وممارسة القراء تأخذ صبغة إجبارية نفعية أكثر من كونها فعلا اختياريا بهدف تحقيق المتعة [20].

والحديث عن قراءة مجدية تتطلب وجود قارئ كفء، ويفترض أنّ هناك اربعة أنواع من القراء: القارئ الضمني الذي هو جزء لا يتجزأ من البنية النصية، هو الأكثر عملا وخبرة بآلية الابداع التي تحكم النص في بنائه وانسجامه، و القارئ المتخيّل الذي يتصوره الكاتب وهو ينشئ عمله، هذا القارئ الذي يأخذ موقع المرسل اليه، والقارئ النموذجي الذي بإمكانه أن يستجيب لمقتضيات القراءة على أكمل وجه، وقد ينتسب إليه عدد محدود من القراء الفعليين على وجه الظن لا اليقين، إضافة إلى القارئ المثالي الذي يحمل كلّ مواصفات القارئ الناجح الذي ليس له مثيل على أرض الواقع، وكل صنف من هؤلاء القراء في متناولهم أن يقوموا بقراءة مثمرة رغم درجة التفاوت بينهم[21]. أما مواصفات القارئ الناجح عند الناقد "عبد الله الغذامي" فهو الذي يجيد القراءة الصحيحة السليمة "فعدم معرفة السياق الادبي ومعه نظرية الاجناس الأدبية اوجدت في ثقافتنا اليوم أناسا يقرأون الشعر (والحديث منه خاصة) مثلما يقرأون المقالة، ويطلبون في الشعر سياقا مثل سياق الحديث الصحفي، فيطلبون فهم كل كلمة في الشعر، وكل جملة فيه بمعنى محدد مثل ما يجدون في معاجم اللغة، فإذا أعجزهم وجود هذا راحوا يرمون الشعر بتهم الغموض والغرابة، ولو أدركوا أنّ الشعر جنس أدبي يتميز عن سواه من أجناس القول، وأنّ له سياقا يوجه نصوصه، ويتحكم بفهمها وتفسيرها، وهو في ذلك كله يختلف عن الخطاب المباشر لو أدركوا هذا لعرفوا مسالك الشعر ولأقاموا للكلمة الشاعرة حقها في الاستقبال الشعري الصحيح"[22] وهذا يؤكد أنّ المسؤول عن انجاز قراءة صحيحة خاصة في النص الأدبي هو القارئ لا النص ، والنص في مرحلة الابداع ليس هو النص بعينه في مرحلة التلقي، فليس من اليسير ضبط العلاقة القائمة بين القارئ والنص فهل النص هو الذي يخضع لسلطة القارئ ام العكس؟

4. دور المؤلف في انتاج المعنى:

لقد كتب رولان بارت مقالة عام 1968 يعلن فيها (موت المؤلف) بأن قطع الصلة بين النص وبين صوت بدايته، ومن ذلك تبدأ الكتابة التي أصبح بارت يسميها بالنصوصية (Textuality) بناء على مبدأ أنّ اللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف، والمؤلف لم يعد هو الصوت الذي خلق العمل أو المالك للغة أو مصدر الإنتاج، ووحدة النص لا تنبع من أصله ومصدره، ولكنّها تأتي من مصيره ومستقبله[23] غير انّ هناك من يرى أنّ المؤلف هو الذي ينتج المعنى، وينطلق من التعريف الشائع في التراث للغة بأنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم(ابن جني)، وهي الوسيلة التي يستطيع المتكلّم بها تحويل الأغراض والشيء المضمر في دخيلة ذاته إلى علامات صوتية يمكن أن تصل إلى متلق، يستطيع أن يعرف من خلال قراءتها هذه الأغراض أو الأشياء التي تجيش بها نفس المتكلم، و"الفرض" المطروح هو

أنّ المتكلم يتوجه نحو هذا المتلقي بالكلام، فيسعى إلى توصيل محتوى النفس هذا إليه، فمن العبث إرسال رسالة إلى مخاطب دون هذا الهدف[24] فالمعنى بهذا ينتجه المؤلف دون القارئ. وهذا ما ذهب اليه "عبد المالك مرتاض "في قوله:" إنّ المؤلف لم يتراجع سلطانه قط، ولم يتقهقر نفوذه لا ظاهريا ولا روحيا، ولا أحد يستطيع أن يزعم لنا أننا حين نقرأ ديوان المتنبي سنقرأه بمعزل عن شخصية المتنبي وكبريائه وغطرسته وخيلائه،...[25] فالمؤلف في نظر مرتاض ما يزال يحتفظ بمكانته ومشروعيته في امتلاك النص، وما محاولة فصل النّص عن صاحبه إلّا نتاج طروحات النقد الأجنبي وتحديدا المدرسة البنائية[26]، وهو بهذا ينهج نهج القدامى في الانتصار للمؤلف، غير أنّه لا يمكن إنكار دور القارئ، فالنص من دونه محكوم عليه بالفناء والضياع والنسيان " وإذا كان منهج قراءة النصوص قد تأسس في نطاق تلاوة النصوص الدينية فإنّه لم يظل محصورا في هذا النطاق حيث كانت المقارنة مطروحة بين النص الديني المقدس والنص الإنساني بالنسبة لأباء الكنيسة حتى تظهر الفروق التي كانت تميز كلام الله عن كلام البشر... ولكن ما نود تأكيده هو أنّ هذا المنهج تسلل الى قراءة النصوص البشرية وكان الشاعر الإيطالي "بيترارك" ممّن تعرضوا لموضوع القراءة واختزان النصوص في الذاكرة "[27] فالقراءة منذ أن وجدت هي عملية تقرير مصيري بالنسبة إلى النص، ومصير النّص يتحدّد حسب استقبالنا له، "فالقراءة إذاً تتضمن تقرير مصير النص الأدبي وعليه فمن الضروري أن نعرف أي نوع من القراءة يستطيع تحقيق ذلك بقدر من الكفاءة يؤهله للحكم الصحيح"[28] ، والمهمة التي يتطلع إليها الغذامي في شأن دور القارئ هو الوقوف على حقيقة النص، والتعاطي معه بشيء من الاحترافية حتى يحقق إنجازا يضاهي الذي قام به المؤلف، "فالنص وجود مبهم ولا يتحقق هذا الوجود إلا بالقارئ، ومن هنا تأتي أهمية القارئ وتبرز خطورة القراءة كفعالية أساسية لوجود أدب ما"[29].

ويشير "محمد مفتاح" إلى أنّ المتلقي لا يذهب إلى عالم النص وهو عبارة عن صحيفة بيضاء، وإنّما تكون له معلومات مختزنة في ذاكرته تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير بما تسمح له بإعادة الرأي في قياسه، وتصحيح بعض أجزائه كما أنّ النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية"[30]، والمتلقي عليه أن يرجع أحيانا كثيرة إلى القيام بعمليات استدلالية بسيطة أو معقدة أشهرها ما يدعى بالفرض الاستكشافي،[31] وهذا مؤداه إلى أنّ صنع المعنى لا يكتب له النجاح إلا بفضل عمل مشترك يساهم فيه بقدر كبير القارئ إلى جانب النص عبر المنحى التفاعلي[32]

إنّ ما يؤكده "محمد مفتاح" هو امتلاك القارئ أدوات معرفية فعالة تمكّنه من خلق علاقة حميمية بينه وبين النص المستهدف، فهي تحقق التواصل الذي افتقده النص مع منتجه، لتأتي بعد ذلك عملية استنتاج خصائص النص ومميزاته، ولا يؤكد نجاعة هذا الاجراء في كلّ الأحوال لخصوصية بعض

النصوص، ولتجاوز هذا العائق نصح القارئ بالاعتماد على آلية الفرض الاستكشافي من خلال الجمع بين الاستقراء والاستنتاج في اطار فرضي مرحلي، فإذا كان النص واضح الدلالة فإنّ ما ينطلق منه القارئ هو بمثابة فرض استنتاجي، وإن تبيّن غموضه فتصير الفرضية المعتمدة قيد إعادة النظر إلى غاية تحقيق نقاط التوافق مع مقصدية المؤلف.[33]

5. دور القارئ في انتاج المعنى:

عمل "رولان بارت" على إعادة الاعتبار إلى القارئ بتأكيد فعاليته في العملية الإبداعية، فلم يعد مستهلكا فقط بل صار منتجا، والقارئ في نظر "بارت" حر في قراءة العمل الادبي على أي وجه يريد بصرف النظر عن ذاتية المبدع أو المرجعية الثقافية الاجتماعية، وعليه فإنّ مهمته لا تكمن في الكشف عن الدلالة التي سنها المبدع بل في تشكيله للمعنى كفعل إبداعي حر[34]، وعليه يستحيل احتكار دلالة العمل الادبي عبر التاريخ.

و يمكن استكشاف أفاق دور القارئ في عملية التفسير في ظل الجدلية الحاصلة بين النص المفتوح الذي يجعل من القارئ شريكا في العملية الإبداعية، والنص المغلق الذي يحد من دوره المقتصر على الاستجابة المحدودة للأثر الأدبي وعليه فقد بدأت ترتسم معالم نظرية القراءة في الأفق بانفتاح النص على المتلقي على أساس قاعدة التخاطب. وفي هذا السياق يقول "رشيد بن جدو" " لن نميز في الغالب بين القراءة والقارئ رغم وعينا بأنّهما غير متعارضين "فالقراءة هي دائما قراءة نص، أما القارئ فبإمكانه ألا يقرأ ويبقى قارئا"[35] وفضل القارئ يتجلى فيما يقوم به في إثراء النص" إنّ الموضوع الادبي فراغ، أو فضاء يتطلب من يملأه، وليس إلاّ الذات القارئة، والنص باعتباره مشروعا مفتوحا يحتاج باستمرار إلى من يكمّله على أحسن وجه[36] فالقارئ مطالب باستكشاف "كيف" النص، والقراءة ؛ أي تلك الفجوات والفراغات النصية التي تتطلب ملء القارئ لها[37]. والنص بهذا المعنى فراغات لا يملأها إلاّ القارئ.

وقد أكّد بعض النقاد حرية القارئ، وحقه في الاختلاف مع مؤلف النص، فقد ذكر "وليد قصاب": أنّ من أطرف المناقشات الأدبية التي قرأت عنها مناقشة دارت بين أديب شاعر وبين قارئ ناقد، كان الناقد يومذاك يوجه التي بين يديه وجهة لم ترض الشاعر، ولم يوافق عليها، وقال إنّه لم يقصدها ولا تماوجت في خاطره من قريب أو بعيد ساعة كان ينشئها، وعندما اشتدت المناقشة بينهما، واختلفت وجهتا النظر اختلافا لا سبيل إلى التوفيق بينهما، قال الشاعر ولكنها قصيدتي أنا صنعتها وهي جزء مني، خرجت تحمل بضعة من نفسي وقيمة من عواطفي، فالصانع أدرى بما صنع، وأعرف بمداخله ومخارجه فراجعه الناقد قائلا: ليس هذا صحيحا، ولا مهما على أخف تقدير، فإنّ من عادة النقاد ألا يهتموا كثيرا بمقاصد الأدباء فيما انشأوا من الوان القول وفنون العمل، ولا يعدّ مقصد الأديب من عمله الأدبي – وإن نص على ذلك صراحة– قيدا يغلّ من حرية الناقد في أن يجول في هذا العمل كما شاء، ويبحر في

سواحله الواسعة العميقة ما وسعه الإبحار يستخرج من الأعماق ما يريد، ويستكنه منها ما يهديه إليه ذوقه وحسه وخبرته[38]. فليس هناك معايير أو قوانين محدّدة تحكم على ما ينجزه القارئ مقابل ما يقدمه المؤلف، وسبب ذلك أنّ مهمة التأليف تنتهي بتشكيل النص، وهذا ما جعل النص في نهاية المطاف ملكا لقرائه، ولا سلطة للمؤلف على النص ما دام عمله لا يتجاوز حدود المرحلة الإبداعية.

ويركز "وليد قصاب" على القارئ القادر على محاورة النص، واستخلاص ما شاء من المفاهيم والمدلولات والقيّم، "فالقارئ في مثل هذا الصنيع أشبه بمن يغوصون في أعماق البحر، فقد يستخرج أحدهم اللؤلؤ، وقد يعود الآخر بالمرجان، وقد يرجع ثالث بالصدف أو غيره، فكلّ قد وقع على ما يشاء في داخل هذا البحر المترامي الفسيح الذي يحتوي على كل هذا، والعمل الأدبي في حقيقته كالخضم الزاخر العميق، فهو واسع الدلالة بعيد الغور غني بالإيحاءات والصور والرموز"[39]، ويصدق هذا القول على مختلف القراء بحسب أجهزتهم المعرفية والنقدية.

وقد رفض بعض الشعراء منطق العلماء الذين أرادوا ترسيخ أحادية المعنى كقول احدهم:

ما كل قولي مشروحا لكم فخذوا *** ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

وإنّ ما يثير الجدل بين المؤلف المبدع والقارئ هو انفصال النص عن صاحبه، وهذا رأي أكده "وليد إخلاصي" عندما قال: "إنّ خروج النص المبدع من عالم الكاتب لهو أشبه بانفصال الجنين عن أمه هاربا من الرحم المغلق إلى الحياة المنفتحة، ومن المحصن إلى الملوّث، ومن الفردي إلى الجماعي، ومن الذاتي إلى الاجتماعي، ومن المبهم إلى الواضح"[40] وفي هذا تأكيد زوال العلاقة القائمة بين المبدع ونصه بمجرد انتهاء العملية الإبداعية، ومن ثمة يستحيل بعث العلاقة من جديد، فالنص في مرحلة التكوين يقتات من صاحبه قبل أن يتلقاه القارئ، وتصبح لا سلطة للمؤلف عليه ، وهنا تصبح الإشكالية المطروحة من يمتلك النص أهو المؤلف أم القارئ؟

وفي هذا السياق لا يتردد "عبد الله الغذامي" في تغليب صوت القارئ على المؤلف، وهو يقف على جانبي الابداع والتلقي، "فالكتابة تعزل نفسها عن مبدعها منذ لحظة ولادتها، وتأخذ بالابتعاد عن مبدعها يوما بعد يوم، وتنمو في معزلها حاملة وجودها المستقل الذي لا تستمر حياته إلا بالقارئ الذي يتناولها، ويمنحها الحيوية بالتفاعل وفك الغازها"[41]

فالناقد يدعو إلى الحفاظ على مقومات الابداع وخصوصيته من دون المساس بآليات عملية التلقي، فللقارئ حرية التناول اتجاه ما يقرأ بالطريقة التي يرتضيها، والموقف الذي يتبناه

"فالقارئ هو قطب من اقطاب الاتصال الفاعلة التي لها وزنها ومكانتها على مستوى التلقي والفهم، وعليه لا يمكن الاستهانة به حتى تؤدي الرسالة النصية وظيفتها، بل حتى تتحقق كينونة النص، وبعبارة أخرى لا وجود لنص من دون قارئ[42]

فالقارئ هو الذي ينتج النص، ويصبح عدد النصوص بقدر القراء الذين يتلقون النص، فمهمة القارئ لا تقل شأنا عن دور المؤلف؛ لأنّه يقوم بتحويل النص من التجربة الفنية التي يتمثلها عبر آلية الابداع إلى تجربة عملية بفعل حركية التلقي.[43]

واتّجهت دراسات أخرى إلى إعادة الاعتبار إلى القارئ دون إهدار مكانة المؤلف بما يخدم منطق تعادل موازين القوى بينهما، لتأتي أبحاث أخرى كل مسعاها هو جعل المؤلف لعبة في يد القارئ، ومن ثم فهو يكيف خطابه بحسب رغباته، ويصير ناطقا باسمه بما يغيب رأي المؤلف عن عمد، ويجسد موقف القارئ بالقوة لسبب مرده لا حاجة لمقصدية المؤلف في النص مهما كانت قيمتها وأبعادها نتيجة غياب الطرف المبدع عند حضور الطرف المتلقي[44]

ويصبح القارئ لا يضع أي اعتبار ولا مكانة لمقصدية المؤلف، بل قد يطعن في مصداقيتها واحقيتها في هيكلة المعنى النصي، فالمؤلف يعمل على انتاج النص؛ أي إخراجه إلى الوجود كمادة لغوية بينما يسعى القارئ إلى انتاج المعنى في شكله النسبي والمحتمل والمؤقت، وبالتالي فإنّ الإقرار بمكانة القارئ هو رد الاعتبار لمقصديته وإمكانية اختلافه مع مقصدية المؤلف.

إنّ مهمة القارئ هي البحث في جزئيات النص مقارنة بكلياته، أو الربط بين النتائج الفرعية والنتائج العامة التي يعتد بصحتها، فإن تحقق التناسق والانسجام فيما بينها كان التأييد لمعنى على حساب معنى آخر. فالقارئ يعيد تشكيل النص ليس في الصورة التي جاء بها المؤلف، وانما من خلال انعكاس ذاتية القارئ على النص المقروء.

والنظريات التي تدعو إلى تحرر القارئ وتشيد بفعاليته في انتاج المعنى فهي لا تنادي بإهدار مقصدية المؤلف؛ لأنّ القارئ لا يعطي النص معنى أو دلالة غريبة عنه وانما يكتشف ما فيه فقط.

6. العلاقة بين المؤلف والقارئ:

إنّ القارئ لا يملك الحرية المطلقة في التعامل مع النص ما دام دوره يكمن في محاولة التوصل إلى مواطن التقاطع مع مقصدية المؤلف، وبما أنّ كلّ طرف يراعي وجود الطرف الآخر ضمنيا "كانت استراتيجية القارئ تكمل استراتيجية المؤلف، فالعملية لا تراعي الاختلاف والتمايز في وجهات النظر قدر ما تخدم عامل التقارب وتطابق الآراء، ويأتي التبرير لذلك كون ما يختاره المؤلف من أساليب التعبير عن موقف ما، قد تضع في الحسبان تطلعات القارئ حتى يكسبه كمؤيد لا معارض لطروحاته، فإذا كانت هناك ثغرات في النص بإمكان هذا القارئ ملأها من خلال السياق الخارجي للنص بما تقتضيه عملية التأويل، ولكن في حدود مقبولة، "فاذا كان دور استجابة الذات المتلقية للنص أمرا مرغوبا فيه وملحا عليه في دراسات متعددة، فإنّ ذلك الدور يجب أن توضع له قيود لئلا يتغلب الهذيان على الواقع، ويسود التسيب على الكلام المسؤول"،[45] وهذا دليل على أنّ القارئ تضعف فعاليته وتبقى تحت احتكار المؤلف

والنص معا، وهذا ما يجعل دوره محدودا ولا دور له في صناعة المعنى، "إنّه المنفذ وليس هو المقرر في مصير النص، وبناء على هذا التصور يحاول محمد مفتاح ان يقيم معادلة تسوي في الظاهر بين كفة دور المؤلف بوصفه المنتج الفعلي للنص وكفة دور القارئ باعتباره المشارك في انتاج معناه، غير ان في حقيقة الامر ليس هناك ما يسوي بين الطرفين ؛ لان مجال حركية القارئ محدودة، وأنّ استجابته تتوقف عند معالم التلقي السلبي[46]

إنّ الاختلاف في القراءة وارد في كل قراءة، وبين قارئ وآخر، فالنص الواحد يحتمل اكثر من قراءة كما يمكن أن تكون قراءة محايدة في بعض النصوص، وينفي "علي حرب" حرية القارئ وهو يتعامل مع النص؛ ولو كان ذلك لأصبحت القراءة عبثا ولغوا، فالقارئ مطالب بمحاورة النص على أساس لغة التعارف، فمن خلال النص يتعرف على ذاته وعلى هوية المقروء،[47] ومعرفة النص تكون ملازمة لمعرفة الذات القارئة، فالنص يدعو القارئ إلى التفكير كما يدعوه إلى الترويج ،وهنا تظهر هوية القارئ تجاه ما يقرأ، فمساهمة القارئ مطلوبة لاختراق طبقات المعنى حتى يكون التجديد في النص على الدوام عبر كل قراءة مما يفند مقولة إعادة تشكيل النص كما هو أو تكرار معناه [48]

إنّ النظر الى العلاقة التي تربط القارئ بالنص من منظور علاقات القوة تجعلنا نقول أنّ هناك علاقة سيطرة أو تبعية أو تكافؤ بين القارئ والنص، وهذه المستويات تتحقق بطرق واشكال مختلفة[49]

وتتحدث "سيزا قاسم" عن عملية الاسقاط في القراءة عندما يتبنى القارئ النص ويجعله تعبيرا عمّا يختلج في نفسه وذاته، وقد يصاحب هذا الاسقاط تقمص شخصية المتكلم غير أنّ هذا المتكلم لا يكون بالقطع منتج النص الواقعي، وهذه الظاهرة من أوضح ما تكون في النص الفني، وهل يمكن أن يخضع القارئ النص لذاته إذا لم تكن هذه الذات قد تشكلت ووضحت معالمها، فنوعية العلاقة التي تربط القارئ بالنص تتحدّد من خلال وعي الذات بنفسها، ووعيها بالنص الذي تتلقاه، فالقارئ قد يستخرج من النص دلالة ليست هي ما قصد اليه المؤلف سواء لأنّ النص يحتملها وفقا لرؤية غير ما قصده المؤلف، بل وحتى من اسقاط القارئ[50] فالنص
أحيانا هو المحدد لدور القارئ.

وفي خضم هذا الجدل الحاصل بين المؤلف والقارئ يراهن "محمد مفتاح" على عامل التفاعل الذي يمكن أن يحدث بينهما من منطق تكيف الخطاب مع توجهات القارئ، وهذا ما يؤدي في نظره إلى "سلب السلطة المطلقة من المرسل على إصدار خطابه بعجرفة أو لا مبالاة نحو الآخرين، وأن تدخله في دائرة القواعد الضمنية أو العلانية، وأن تجعله يكيّف خطابه على قدر عقل متلقيه، ليحصل التفاعل وكسب استمالة المتلقي ونيل رضاه..." [51]

ويبدو أنّ "محمد مفتاح" لا يلغي وجود المؤلف، ولا يتجاهل القارئ ومكانته، فلكل طرف منهما ضوابطه وأولوياته بناء على طبيعة العلاقة التي تجمع المنتج والقارئ.

استنتاج:

إن الدراسات القديمة رأت أن المؤلف هو المنتج للمعنى وما على القارئ إلاّ اكتشافه ، أما الدراسات الحديثة فرأت أن المعنى يشارك كلّ قارئ في إيجاده فهو يتجدد من قارئ إلى آخر ، وأنّ النص لا وجود له قبل عملية القراءة، والأعمال الخالدة لا تفرض معنى واحدا على قراء مختلفين، والأثر الحق هو الذي يفتح تعددية المعاني، وأنّ النص مستويات من حيث انتاج الدلالة، والهدف من القراءة أن تفوق حدود التلقي المباشر، وتساهم في إيجاد المعاني، والقراءة المجدية تتطلب وجود قارئ كفء؛ لأنّ القراء أنواع والقراءة مستويات.

الهوامش:

[1] . ينظر الهيرمنيوطيقاومعضلة تفسير النص، أبو زيد(نصر حامد)، ، مجلة فصول، المجلد1، العدد 3، ص145

[2] . أزمة النص في مفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد، زمرد(فريدة)، ، مطبعة أنفو ، المغرب، 2005، ، ص45

[3] . البيان والتبيين ،الجاحظ(أبو عمرو بن بحر)، دار مكتبة الهلال، مج1 ،2002، ص131

[4] . عيار الشعر ،ابن طباطبا، ، تح محمد زغلول سلام، مطبعة التقدم الإسكندرية، ص 52

[5] . استراتيجية القراءة والإقراء، حمود(محمد)، تدريس الأدب، ، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1993، ص22

[6] . ينظر أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة من 24 إلى 27أفريل، 1991، منشورات كلية الآداب بمنوبة 1992، ص146

[7] . صدوق(نورالدين)، في النص وتفسير النص ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد76 ، 1990، ص26

[8] . مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ،أبو زيد(نصر حامد)، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د–ت)، (د–ط)، ص267

[9] أزمة النص في مفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد، زمرد(فريدة)، مرجع سابق، ص 45

[10] . ينظر الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الغذامي (عبدالله محمد)، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998، ص84

[11] . حرب(علي)، قراءة ما لم يقرأ ، ، نقد القراءة ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء العربي، بيروت ، العدد61، 1989، ص 41

[12] . ينظر هرمنوثيك النثر الأدبي ،علوش(سعيد)، ، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص17

[13] . سوسيولوجيا الادب ، روبير اسكاربيت، ، ترج أمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات بيروت، ط1، 1978، ص156

[14] . خرماش(محمد)، سيميولوجيا القراءة واشكالية التأويل، مجلة سيميائيات مجلد2 ، العدد الأول، ص81

[15] . الصكر (حاتم)، منزلة المتلقي في نظرية الجرجاني النقدية ، مجلة المورد، م19، ع2، 1990، ص113

[16] . ينظر الخطاب العربي المعاصر ، الجابري(محمد عابد)، ، دار الطليعة، بيروت ، ط2، 1985، المقدمة 1ن ص9. 10

[17] . ينظر نظرية القراءة في النقد العربي المعاصر ، ملواني(حفيظ)، ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ، 1998/ 1999، ص109

[18] . المعنى الأدبي من الظاهراتية الى التفكيكية، رولان بارت: س/ز ص 18، نقلا عن وليام راي، ، ترج يونيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة، بغداد، ط1، 1987، ص199

[19] . Reseption Et Interpretation.Ouvrage Collectif Horst Steinmets .. Presente par A.Kibedi Varga.Theorie De La Littérature.Ed Picard.Paris1981.p195

[20] . للاستزادة ينظر الرضاوي (أحمد) وبنيس (محمد)، القراءة والقراء في المغرب، مجلة الكرمل، ع11، 1984، ص 245. 255

[21] . ينظر نظرية القراءة في النقد العربي المعاص ، ملواني(الحفيظ)، ، مرجع سابق، ص146

[22] . الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الغذامي(عبدالله محمد)، ، مرجع سابق، ص14

[23] . المرجع نفسه ص73

[24] . ينظر قاسم(سيزا)، القارئ والنص من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا ، عالم الفكر ، المجلد الثالث، العدد 43، 1995، ص277

[25] . ينظر مرتاض (عبد المالك)، قراءة بين القيود النظرية وحرية التلقي ، مجلة تجليات الحداثة، العدد4، 1996، ص35

[26] . ينظر المرجع نفسه، ص 36

[27] . قاسم(سيزا)، القارئ والنص من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا ، مرجع سابق، 275

[28] . الخطيئة والتكفير ، الغذامي(عبد الله)، ، مرجع سابق، ص 77

[29] . المرجع نفسه، 77

[30] . مفتاح (محمد)، دينامية النص(تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص42

[31] . ينظر المرجع نفسه، ص27

[32] . نظرية القراءة في النقد العربي المعاصر ملواني (حفيظ)، ، مرجع سابق، ص140

[33] . ينظر دينامية النص تنظير وإنجاز مفتاح (محمد)، ،مرجع سابق، ص28

[34] – Critiques et verite Roland Barthes.Ed Seuil 1966.p50 Critiques et verite

[35] . بن حدو (رشيد)، قراءة في القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 48-49، 1988،ص13

[36] . ينظر الطرهوني (علي)، النص المكتوب والنص المقروء، ، مجلة الحياة الثقافية، ع58، 1990، ص57

[37] . ينظر بن حدو (رشيد)، قراءة في القراءة ، مرجع سابق، ص23

[38] . قصاب(وليد)، بين المتلقي وصاحبه ، المجلة العربية، العدد11، عام 1982، ص57

[39] . المرجع نفسه، ص58

[40] . اخلاصي(وليد)، في البحث عن الأدب ، مجلة المعرفة، العدد253، عام 1983،ص 71

[41] . الخطيئة والتكفير، الغذامي(عبد الله)، مرجع سابق، ص122

[42] . ينظر نظرية القراءة في النقد العربي المعاصر، ملواني (حفيظ)، ، مرجع سابق ،ص 127

[43] . ينظر اصطيف(عبد النبي)، قراءات غير متأنية في النقد العربي المعاصر في البحث عن دور القارىء، مجلة المعرفة، العدد 251، 1983، ص 245

[44] . ينظر دينامية النص تنظير وإنجاز ، مفتاح (محمد)، مرجع سابق، ص46

[45] . المرجع نفسه، ص42

[46] . ينظر نظرية القراءة في النقد العربي المعاصر ملواني (حفيظ)، مرجع سابق، ص 141

[47] . حرب(علي)، قراءة ما لم يقرأ نقد القراءة ، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع60، 1989، ص42

[48] . ينظر نظرية القراءة في النقد العربي المعاصر، ملواني (حفيظ)، ، مرجع سابق ، ص215

[49] – ينظر ، قاسم(سيزا)، القارئ والنص من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا، مرجع سابق، ص217

[50] . المرجع نفسه، ص266

[51] . ينظر دينامية النص تنظير وإنجاز، مفتاح (محمد)، مرجع سابق، ص51